١٣

# أسباب انهيار الدول في مقدمة ابن خلدون

The reasons for the collapse of states are at the forefront of Ibn Khaldun

الباحث

د. ليث حسن علوان

الجامعة العراقية/ كلية التربية للبنات

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي-الجامعة العراقية
كلية التربية للبنات

## خلاصة البحث

عنوان البحث (أسباب انهيار الدول في مقدمة ابن خلدون)

يعد العلامة ابن خلدون، المؤرخ والعالم الاجتماعي والفقيه المعروف، من اهم العلماء المسلمين والعرب الذين بقي ذكرهم الى العهد الراهن، واشتهر بكتابه المقدمة، وعرفه علماء الغرب بها، واشتهر عندهم، لما في افكاره من بعد نظر، ومحاولة جادة لدراسة المجتمع الانساني من جميع جوانبه، حتى عد مؤسس علم الاجتماع، تم اهمال الجذور الاسلامية لفكر ابن خلدون بشكل متعمد من قبل اغلب من كتب عنه، علما» ان اغلب افكار ابن خلدون مستمدة من الكتاب والسنة بشكل اساس، وأهم البحث النتائج ما يلي:

١. أن لكل أمة أجلاً محدداً، وابرز من تكلم عن ذلك ابن خلدون، معتمدا» في ما توصل اليه على القرآن الكريم والسنة المطهرة، بشكل اساس.

٢. نبذ الدين وانتشار الفواحش والمعاصي سبب اساس في انهيار الدول، وللأحكام الشرعية دور كبير في حفظ المجتمع من الانهيار الاخلاقي، لأنها انما جاءت لحفظ الضروريات، لا سيما حفظ الدين.

٣. الظّلم مؤذنا بانقطاع النّوع وتخريب العمران، وهو سبب مهم من اسباب انهيار الدول فظلا» عن انه مخالفة كبيرة لشرع الله واحكام الاسلام.

٤. الانهزام الفكري وتقليد الغالب اورث الامة الخنوع، وهو سبب من اسباب انهيار الدول.

٥. الترف علامة على ادبار وانقراض الدولة، لذلك كان سبب مهم من اسباب انهيار الدول.

٦. زيادة الضرائب، واكل اموال الناس بالباطل، وعمل الحكام بالتجارة، من اسباب انهيار الدول.

٧. لقد حدد ابن خلدون المدة اللازمة للإصلاح امة بأربعين سنة، واساس هذا الاصلاح هو التربية والتعليم، فضلا» عن توفير البيئة الازمة لنجاح الاصلاح، والاهتمام بالعلماء وتوقيرهم لانهم اساس الاصلاح والمعرفة وانه لا نهوض للأمم لا بهم.

## Research summary

Research title (Reasons for the collapse of states in the introduction to Ibn Khaldun)

The scholar Ibn Khaldun, the historian, social scientist and well-known jurist, is considered one of the most important Muslim and Arab scholars who have remained in the present era. Its aspects, even being considered the founder of sociology, the Islamic roots of Ibn Khaldun's thought were deliberately neglected by most of those who wrote about him, knowing that "most of Ibn Khaldun's ideas are mainly derived from the Qur'an and Sunnah, and the most important research results are the following:

١) That every nation has a specific term, and the most prominent person who spoke about that was Ibn Khaldun, relying mainly on what he reached on the Holy Qur'an and the Sunnah.

٢) The rejection of religion and the spread of immorality and sin is a fundamental reason for the collapse of states. The legal rulings have a great role in preserving society from moral collapse, because they came to preserve the necessities, especially the preservation of religion.

٣) Injustice signifies the cessation of gender and the sabotage of urbanization, which is an important reason for the collapse of states, so that it is a major violation of the law of God and the provisions of Islam.

٤) . Intellectual defeat and the imitation of the victor bequeathed the nation to subservience, and it is one of the causes of the collapse of states.

٥) Luxury is a sign of the rule and the extinction of the state. Therefore, it was an important reason for the collapse of states.

٦) Increasing taxes, consuming people's money unlawfully, and rulers doing trade, are among the causes of the collapse of states.

٧) Ibn Khaldun specified the period required for reforming a nation to forty years, and the basis of this reform is education, as well as "providing the necessary environment for the success of reform, and the concern and reverence for scholars because they are the basis of reform and knowledge and that there is no advancement of nations without them.

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين. . .

يعد العلامة ابن خلدون، المؤرخ والعالم الاجتماعي والفقيه المعروف، من اهم العلماء المسلمين والعرب الذين بقي ذكرهم الى العهد الراهن، واشتهر بكتابه المقدمة، وعرفه علماء الغرب بها، واشتهر عندهم، لما في افكاره من بعد نظر، ومحاولة جادة لدراسة المجتمع الانساني من جميع جوانبه، حتى عد مؤسس علم الاجتماع.

ومع وجود الكثير من المراكز البحثية التي اهتمت بفكر ابن خلدون من جميع الجوانب، تم اهمال الجذور الاسلامية لفكر ابن خلدون بشكل متعمد من قبل اغلب من كتب عنه، علما» ان اغلب افكار ابن خلدون مستمدة من الكتاب والسنة بشكل اساس، وذلك واضح من كثرة استدلاله بالقرآن والسنة في مقدمته، لذلك قمنا في هذا البحث، بتأصيل الفكر السياسي عند ابن خلدون لاسيما في جانب نشوء الدول وانهيارها، لذلك كل مطلب في البحث سيبدأ بذكر الاصل الشرعي للمسائلة من الكتاب والسنة، ثم عرض راي ابن خلدون بالتفصيل.

لذلك كان عنوان هذا البحث (أسباب انهيار الدول في مقدمة ابن خلدون).

ان دراسة هذا الجانب في فكر ابن خلدون يعطينا فهم اكبر لأرائيه، فضلا عن حل مشاكل المجتمع وتلافي الاسباب التي تؤدي الى انهيار الدول في العهد الراهن، ونحن نلاحظ ان هذا الامر هو مطلب الكثير من الدول المتقدمة، لأنها تحرص على ضمان مستقبل شعوبها من خلال البحث عن الاسباب التي تؤدي الى انهيار المجتمع ومن ثم انهيار الدولة وبعد تحديد الاسباب تضع الحلول التي تحافظ على المجتمع والدولة من خلال خطط طويلة الامد.

وبما ان المسلمين كان لهم السبق في هذا المجال من خلال فكر ابن خلدون وغيره من العلماء، فيفترض ان نكمل الطريق، والأمراض التي تعجل بانهيار المجتمع والدولة، معظمها اسباب من الممكن علاجها وواجبنا يدعونا للبحث عن علاج، فإما ان نسهم في الحل او نقف نبكي فوق التل بعيدا» عن الميدان.

وقد قسمت هذا البحث الى سبع مطالب: –

– في المطلب الاول سنعرف بابن خلدون ونمهد للبحث.

–وسنتكلم في المطلب الثاني عن نبذ الدين والفساد الاخلاقي ودوره في انهيار الدولة.

–وسنتكلم في المطلب الثالث الظلم ودوره في انهيار الدولة.

– وسنتكلم في المطلب الرابع تقليد غير المسلمين ودوره في انهيار الدولة.

–وسنتكلم في المطلب الخامس عن الترف ودوره في انهيار الدولة.

–وسنتكلم في المطلب السادس عن الاسباب

الاقتصادية ودورها في انهيار الدولة.

-وسنتكلم في المطلب السابع عن الحلول والمعالجات.

-وسننهي البحث بخاتمة فيها خلاصة البحث.

## المطلب الاول
## التمهيد

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

«فقد أخبر تعالى فيها أن لكل أمة أجلاً محدداً أي وقتاً معيناً يتم هلاكها فيه لا تتقدمه بساعة ولا تتأخر عنه بأخرى. وفي هذا إشارة أفصح من عبارة وهي أن هلاك الأمم والجماعات والأفراد يتم بسبب انحرافهم عن منهج الحياة، من شأنها أن تودي بحياة مرتكبيها لا محالة ما لم يتوبوا منها وتصلح حالهم بالعودة إلى منهج الحياة الذي وضع الله في الإيمان والتوحيد والطاعة لله ورسوله بفعل كل أمر وترك كل نهي»[2].

«الأمم والشعوب والأفراد ترتبط حياتهم بأزمان معينة وتواريخ محددة، والزمان والتاريخ سجل أمين حافل بأعمال البشر، فهم إن ملأوا صفحة الحياة بأفعال مجيدة تفيد البلاد والأوطان، كانوا مؤدّين رسالة الحياة بأمانة وشرف وكرامة، وهم إن شغلوا أعمارهم وأوقاتهم بالمظالم وتوافه الأمور، كانوا خونة الأمانة وعالة على التاريخ، فالعقلاء هم الذين يعمرون حياتهم بجلائل الأعمال المفيدة للأمة والديار»[3].

ومن ابرز من تكلم في هذا الجانب من حياة الامم والشعوب والدول هو العلامة المالكي ابن خلدون مستندا» فيما قال على ثقافة اسلامية عالية قائمة على الكتاب والسنة، مستنبطة منها الحكم والعبر، للوصول الى عمق الحقائق والسنن الكونية في ظهور واندثار الامم والدول، لذلك نمهد لهذا البحث بالتعريف بابن خلدون وبيان منهجه في هذا الامر.

«هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الاشبيلي، من ولد وائل بن حجر﵁[4] الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالا، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها. وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزي بزي القضاة محتفظا بزي بلاده. وعزل، وأعيد. وتوفي فجأة في القاهرة. كان فصيحا، جميل الصورة، عاقلا، صادق اللهجة، عزوفا

(١) سورة الاعراف، اية ٣٤.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٥، ٢/ ١٦٨.

(٣) التفسير الوسيط للزحيلي، المؤلف: د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق ط١، ١٤٢٢ هـ، ١/ ٦٥٤.

(٤) وَاثِلُ بنُ حُجْر بن سَعْد أَبُو هُنَيْدَةَ الحَضْرمِي أَحَدُ الأَشْرَافِ، كَانَ سَيِّدَ قَوْمِه لَهُ وِفَادَةٌ، وَصُحْبَةٌ، وَرِوَايَةٌ سير اعلام النبلاء٢/ ٥٧٢.

عن الضيم، طامحا للمراتب العالية»[1].

يقول ابن خلدون: «أمّا نشأتي فإنّي ولدت بتونس وربّيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري»[2]، «وكان إماما في القراءات لا يلحق شأوه وبعد أن استظهرت القرآن العظيم عن حفظي، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة»[3].

وهذا يدل على التربية الدينية المتجذرة في حياة ابن خلدون.

وله مؤلفات كثيرة منها في الفقه والحديث والتاريخ وعلم الاجتماع والمنطق والحساب، نذكر كتب الفقه والحديث منها (اختصار كتاب المقدمات الممهدات وكتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد) وشفاء السائل في تهذيب المسائل في الفقه، ولباب المحصل في اصول الدين، وشرح الرجز في اصول الفقه، وتذكير السهوان في الحديث، ومزيل الملام عن حكام الانام في القضاء[4].

«ما أكثر ما كتب عن ابن خلدون ومقدمته من أبحاث ودراسات في الشرق والغرب، طيلة القرنين الأخيرين، حتى أن هذه الكتابات تشكل اليوم، بحق، مكتبة غنية تزداد امتلاءً يوماً بعد يوم. . ولكنه وحيث أشبعت بحثاً النواحي الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والتاريخية والسياسية والحضارية والفلسفية والأدبية والمقارنة والمنهجية؛ لم تنل المسألة الدينية أي اهتمام يذكر، على عمقها واتساعها في المقدمة، وعلى ارتباطها بهذه الجوانب الآنفة الذكر جميعاً»[5].

«واذا كان المرء ابن بيئته وحصاد مجتمعه، ونتاج ثقافته، فقد كان ابن خلدون كذلك انه عالم من علماء المسلمين، وفقيه من فقهاء الشريعة، وعلم من اعلام المذهب المالكي، ومن ثم صدر في نظرياته جميعا» من منطلق اسلامي محض، وهو ما لم ينتبه اليه دارسوه في الغرب واكثر دارسيه في الشرق»[6].

«ويبقى ابن خلدون، رغم هذا كله، ابن الاسلام، وليد البيئة الاسلامية الشرعية، وتبقى مقدمته على مستوى الفكر ومستوى الحياة، ثمرة ناضجة من

(١) الأعلام خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)دار العلم للملايين ط١٥، ٢٠٠٢م، ٣/ ٣٣٠ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (المتوفى: ٨٣٢هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ٢/ ١٠٠.

(٢) بن برال، محمد بن سعد الأنصاري، اصله من الاندلس، اخذ عن مشايخ بالنسية، وكان اماما في القراءات، لم اجد من ترجم له غير تلميذه ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٥/ ٥١١

(٣) تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٥١١.

(٤) ينظر: ابن خلدون وآراؤه الاعتقادية، عبدالله عبدالرشيد عبدالله، رسالة دكتوراه، جامعة ام القرى، كلية الدعوة و اصول الدين، مكة، ١٤٢٠ ه، ص١٠٦.

(٥) ابن خلدون اسلاميا»، عماد الدين خليل، طبع المكتب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص ٥.

(٦) الاسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، د. مصطفى الشكعة، طبع الدار المصرية اللبنانية، ط ٣، بلا، ص١٤.

ثمارها المترعة»[1].

فكان من الطبيعي ان ينعكس ذلك على كل ما كتب ابن خلدون من نظريات والآراء وما بينه من اسباب للظواهر السياسية والاجتماعية وكذلك ما اقترحه من حلول ويتضح ذلك جليا» عندما كتب عن اسباب انهيار الدول والسياسات التي تودي الى هذا الانهيار فضلا» عن الوسائل التي تؤخر هذا الانهيار، بعد عمر محدد يطول وينقص بحسب عوامل مختلفة لكن الانهيار حتمي.

لذلك يقول: «وهذه الأجيال الثّلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مرّ ولا تعدو الدّول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلّا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا والطّالب لم يحضرها ولو قد جاء الطّالب لما وجد مدافعا»[2].

وفي فصل اخر يقول: «أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة اباء، وذلك أنّ باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال الّتي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لأبيه فقد سمع منه ذلك وأخذه عنه إلّا أنّه مقصّر في ذلك تقصير السّامع بالشّيء عن المعاني له ثمّ إذا جاء الثّالث كان حظّه الاقتفاء والتّقليد خاصّة فقصّر عن الثّاني تقصير المقلّد عن المجتهد ثمّ إذا جاء الرّابع قصّر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهّم أنّ ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلّف وإنّما هو أمر وجب لهم منذ أوّل النّشأة بمجرّد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التّجلّة بين النّاس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهّم أنّه النّسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصبيّته ويرى الفضل له عليهم وثوقا بما ربّي فيه من استتباعهم»[3].

ولكنه لا يجعل المر حتمي بل ربما تتدخل عوامل ثانية في تحديد عمر الدولة فيقول: «واشتراط الأربعة في الأحساب إنّما هو في الغالب وإلّا فقد يدّثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم وقد يتّصل أمرها إلى الخامس والسّادس إلّا أنّه في انحطاط وذهاب واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة بان ومباشر له ومقلّد وهادم وهو أقلّ ما يمكن وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثّناء»[4].

مستشهدا» على كلامه بقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾[5]، وقول الرسول: ﷺ: ((الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ))[6][7].

(١) ابن خلدون اسلاميا»، عماد الدين خليل، ص٨.

(٢) ينظر: المقدمة ١/ ٢١٥

(٣) المصدر نفسه، ١/ ١٧١.

(٤) المقدمة ١/ ١٧١.

(٥) سورة فاطر، اية ١٦-١٧.

(٦) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن ، باب ويتم نعمته عليك، رقم (٤٦٨٨)، ٦/ ٧٦.

(٧) المقدمة ١/ ١٧١.

بل ان ابن خلدون كان يختتم كل فصل من فصول المقدمة بآية قرآنية او أكثر، وأحيانا» يختمه بحديث نبوي شريف، فضلا» عن الابتهالات الى الذات الاهية، وهو يلتزم في أكثر الخواتيم الجملة التي اصطلح علماء المسلمين عليها، (الله اعلم) او (والله ورسوله اعلم)[1].

لذلك دراسة ابن خلدون بعيداً عن الشريعة الاسلامية دراسة عقيمة لا يمكن ان توصل الى نتائج مهمة او مفيدة للمجتمع، لذلك كان هذا البحث هو دراسة اراء ابن خلدون وفق ما تكلم به وستدل به وتقيد به من نصوص الشرعية في المقدمة، لذلك يجب ان نوضح مقاصد ابن خلدون في السياسة الشرعية من خلال تعريف السياسة الشرعية عند ابن خلدون ودور هذا السياسة في حفظ الدولة وتأخير انهيارها.

السياسة لغة: «ساسَ الطعامُ وغيرُه يسُوسُ سَوْسًا، فهو سائِسٌ، وأساس يُسِيس إساسةً، فهو مُسِيس»[2].

«ساسَ الرَّعِيَّةَ سِيَاسَةً، بالكَسْرِ: أَمَرْتُهَا ونَهَيْتُهَا. وساسَ الأَمْرَ سِيَاسَةً: قامَ بِهِ. وَيُقَال: فُلانٌ مُجَرَّبٌ، قد ساسَ وسِيسَ عَلَيْه، أَي أُدِّبَ، وأُدِّبَ وَفِي الصّحاحِ: أَي أُمِّر وأُمِّرَ عَليه. والسِّيَاسَةُ: القِيامُ على الشّيءِ بِمَا يُصْلِحُه»[3].

الشريعة لغة: «شَرَعَ الوارِدُ يَشْرَعُ شَرْعاً وشُروعاً: تَنَاوَلَ الماءَ بفِيه. ودوابُّ شُروعٌ وشُرَّعٌ: شَرَعَتْ نَحْوَ الْمَاءِ. والشَّرِيعةُ والشِّراعُ والمَشْرَعةُ: المواضعُ الَّتِي يُنْحَدر إِلى الْمَاءِ مِنْهَا، قَالَ اللَّيْثُ: وَبِهَا سُمِّيَ مَا شَرَعَ الله للعبادِ شَرِيعةً»[4].

وعرف ابن خلدون السياسة الشرعية وتكلم عن أكثر من تعريف تتفق على هدف واحد هو حفظ الدين وتنفيذ احكام الشرع ومراعاة مصالح الناس للحفاظ على الدولة وتوسيع سلطانها، مما يودي بأمر الله ومشيئته الى اعزاز الدين والخير للناس واطالة عمر هذه الدولة.

السياسة الشرعية: «فالسّياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة للّه في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعباده إنّما هي بالخير ومراعاة المصالح»[5].

«علم السّياسة المدنية إذ السياسة المدنيّة هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النّوع

(١) ينظر: الاسس الاسلامية في فكر ابن خلدون، الشكعة، ص١١٢.

(٢) المُنَجَّد في اللغة (أقدم معجم شامل للمشترك اللفظي)، المؤلف: علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، أبو الحسن الملقب بـ «كراع النمل» (المتوفى: بعد ٣٠٩هـ)، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، دكتور ضاحي عبد الباقي الناشر: عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨ م، ص ٨٢.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد، ابو الفيض، الملقب بالمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ١٦ / ١٥٧.

(٤) لسان العرب، محمد بن مكرم، أبو الفضل، جمال الدين، ابن منظور الانصاري (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ، ٨/ ١٧٥.

(٥) ينظر: المقدمة، ١/ ١٧٩.

وبقاؤه»[1].

«السّياسة بالشّريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم»[2].

علماً ان هذه التعاريف والاهداف تتفق معها جميع كتب السياسة الشرعية عند المسلمين[3]، وان اختلفت العبارة، مما يدلل على الاثر الكبير للعلماء المسلمين الذين سبقوا ابن خلدون فيما توصل اليه، وان فكر ابن خلدون هو نتاج علمي مشترك لخص فيه ابن خلدون جهود من سبقه من علماء الاسلام، وبلور هذه المعرفة الاسلامية بالصورة التي سنجدها في المقدمة.

ولكن هذا لا يعني ان ابن خلدون لم يطلع على علوم الامم الاخرى المختلفة، بل كان واسع الاطلاع على مختلف العلوم المعروفة في عصره، كما يتضح في المقدمة، فهو لم يترك علم الا وقد تكلم فيه وبين اصوله والفائدة منه او عدم الفائدة حسب رايه.

وبما ان ابن خلدون بشر يخطأ ويصيب لا يمكن قبول كل ما قاله دون نقد وتمحيص، فأي جهد بشري يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب وتسليط الضوء على هذه الامور، لا يعني باي حال تقليل من جهود الرجل.

مثل قوله: «إنّما تذعن للرّقّ في الغالب أمم السّودان لنقص الإنسانيّة فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه»[4]، ولا يخفى ان هذا القول يخالف احكام الاسلام.

## المطلب الثاني
## نبذ الدين والفساد الأخلاقي

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾[5].

«لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حِزْبَ السُّعَدَاءِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ، مِنَ الْقَائِمِيْنَ بِحُدُودِ اللَّهِ وَأَوَامِرِهِ، الْمُؤَدِّينَ فَرَائِضَ اللَّهِ، التَّارِكِينَ لِزَوَاجِرِهِ -ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ﴾ أَيْ: قُرُونٌ أُخَرُ، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ -وَإِذَا أَضَاعُوهَا فَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَضْيَعُ؛ لِأَنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ وَقَوَامُهُ، وَخَيْرُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ- وَأَقْبَلُوا عَلَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَلَاذِّهَا، وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا، فَهَؤُلَاءِ سَيَلْقَوْنَ غَيًّا، أَيْ: خَسَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[6].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[7].

(١) المصدر نفسه، ١/ ٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ١٩٠.

(٣) ينظر: الاحكام السلطانية، ابو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار الحديث - القاهرة، ص١٨. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابو عبدالله محمد بن ابي بكر، ابن القيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق نايف بن محمد الحمد، دار علم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٨ هـ، ١/ ٢٩.

(٤) المقدمة ١/ ١٨٦.

(٥) سورة مريم، اية ٥٩.

(٦) تفسير ابن كثير، ٥/ ٢٤٣.

(٧) سورة الروم، اية ٤١.

«إذا ولي الظالم أساء بالظلم والفساد، فيحبس بذلك القطر، ويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد، وإن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم عقوبة»[1].

لذلك يقول ابن خلدون: «إذا تأذّن الله بانقراض الملك من أمّة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرّذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السّياسيّة منهم جملة ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدّل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد أتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير»[2].

مستشهداً بقوله تعالى: «وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً»[3].

لذلك عندما تكلم عن العرب في بداية الاسلام في عهد الصحابة (رضي الله عنهم) وكيف كانوا وكيف صاروا فيقول: «كان رستم[4] إذا رأى المسلمين يجتمعون للصّلاة يقول أكل عمر كبدي يعلّم الكلاب الآداب ثمّ إنّهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدّولة أجيال نبذوا الدّين فنسوا السّياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيّتهم مع أهل الدّولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النّصفة فتوحّشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلّا أنّهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولمّا ذهب أمر الخلافة وامّحي رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك»[5].

فرستم يعرف انه لن ينتصر على المسلمين وهم متمسكين بالإسلام لذلك يغضب عندما يراهم يصلون لذلك يقول سيدنا عمر (رضي الله عنه): «إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَلَنْ نَبْتَغِيَ الْعِزَّةَ بِغَيْرِهِ»[6].

لذلك بين ابن خلدون في هذا المثال الذي ضربه، في ان نبذ الدين يؤدي حتماً الى زوال الدولة وانتقالها من قوم الى قوم، فلم يشفع للعرب انهم قوم الرسول وانهم اول من اسلم وجاهد في سبيل نشر الاسلام، فهذا القوانين الربانية التي تكلم عنها ابن خلدون واضحة وصريحة ولا تجامل او تداهن فمن نبذ الدين

(١) تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ط١ ١٤١٠ هـ ، ص٤٣٣.

(٢) المقدمة، ١/ ١٨٠.

(٣) سورة الاسراء، اية ١٦.

(٤) رستم بْن الفرخزاذ الأرمني، قائد الفرس في معركة القادسية، تاريخ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) دار التراث – بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ، ٣/ ٤٩٥ -٥٦٤.

(٥) المقدمة، ١/ ١٩٠.

(٦) المستدرك على الصحيحين، ابو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد بن نعيم النيسابوري، (ت: ٤٠٥ه)، تحقيق مصطفى عبدالقادر، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١١ – ١٩٩٠، كتاب الايمان، باب حديث سمرة، رقم (٢٠٨)، ١/ ، ١٣٠ صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، سلسلة الاحاديث الصحيحة، ابو عبدالرحمن محمد ناصرالدين الالباني، طبع مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١/ ١١٨.

مصيره الى الزوال حاكم او محكوم.

ولذلك يربط ابن خلدون بين الترف والفساد الاخلاقي وان كل ذلك يسبب الانهيار الحتمي للدولة لذلك يقول: «ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشّهوات والاسترسال، ويتبع ذلك التّفنّن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزّنا واللّواط، فيفضي ذلك إلى فساد النّوع. إمّا بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزّنا، فيجهل كلّ واحد ابنه، إذ هو لغير رشدة، لأنّ المياه مختلطة في الأرحام، فتفقد الشّفقة الطّبيعيّة على البنين والقيام عليهم فيهلكون، ويؤدّي ذلك إلى انقطاع النّوع، أو يكون فساد النّوع بغير واسطة، كما في اللّواط المؤدّي إلى عدم النسل رأسا وهو أشدّ في فساد النّوع، ولذلك كان مذهب مالك[1] رحمه الله في اللّواط أظهر من مذهب غيره، ودلّ على أنّه أبصر بمقاصد الشّريعة واعتبارها للمصالح»[2].

وهذا الكلام من ابن خلدون في ان انتشار الزنا واللواط يودي الى انقراض الجنس البشري لأنه يفسد النسل ويودي بالتدريج الى انخفاض نسبة المواليد واقع مشاهد في الكثير من دول الغرب في هذا العصر، التي تبيح الزنا واللواط تحت بند الحرية الشخصية بل انها تشرع هذه الاعمال وتضع لها القوانين[3].

وحقيقة اننا نجد ما قاله ابن خلدون بشكل واضح في الكثير من القصص القرآني، ومنها قصة سيدنا لوط مع قومه لاسيما في سورة الشعراء[4].

اذ تبدء القصة بقوله تعالى: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾».

والسبب واضح ولا يحتاج الى دليل لانهم يجاهرون بالمعصية قال تعالى: «أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾».

فكان عقاب الله تعالى: «فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾».

«لم تختلف دعوة لوط عليه السّلام عن دعوات الأنبياء الآخرين، وجوهر دعوته هي المطالبة بعبادة الله عزّ وجلّ، وحده لا شريك له، وإطاعة الرّسل، والنّهي عن المعاصي، ولا سيما الفواحش التي اقترفوها دون غيرهم. وكان مصيرهم كغيرهم من الأمم الأخرى التي كذّبت الرّسل، فدمّرهم الله تعالى

(١) هُوَ شَيْخُ الإِسْلاَم، حُجَّةُ الأُمَّة، إِمَامُ دَارِ الهِجْرَة، أَبُو عَبْد الله مَالِكُ بنُ أَنَس بن مَالِك بن أَبِي عَامِر بن عَمْرو بن الحَارِث الأَصْبَحِيُّ، المَدَنِيُّ(٩٣ه -١٧٩ه) سير أعلام النبلاء، ٨/ ٤٨.

(٢) المقدمة، ١/ ٤٦٨

(٣) ينظر: الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم، يوسف العاصي إبراهيم الطويل)، مطبعة صوت القلم العربي، مصر، ط٢، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م، ٣/ ٢١٩.

(٤) سورة الشعراء، من الآية (١٦٠-١٧٥).

عن آخرهم بعذاب شديد: هو إنزال حجارة ممطرة من السماء عليهم، فأهلكتهم وأبادتهم»[1].

لذلك يقول ابن خلدون في موضع اخر: «وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيّته وصار مسخا على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كان الّذين يتقرّبون من جند السّلطان إلى البداوة والخشونة أنفع من الّذين يتربّون على الحضارة وخلقها»[2].

«وذلك أنّ النّاس بشر متماثلون وإنّما تفاضلوا وتميّزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرّذائل. فمن استحكمت فيه صبغة الرّذيلة بأيّ وجه كان، وفسد خلق الخير فيه، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته. ولهذا تجد كثيرا من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدّول منطرحين في الغمار، منتحلين للحرف الدّنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلوّنوا به من صبغة الشّرّ والسّفسفة وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمّة تأذّن الله بخرابها وانقراضها»[3].

وهنا يجب ان يكون للسياسة الشرعية دور في حفظ المجتمع لان الشريعة انما جاءت لحفظ الضروريات الخمس، واهمها حفظ الدين.

لذلك يقول ابن خلدون: «واعلم أنّ هذه هي الحكمة المقصودة للشّارع في تحريم الظّلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النّوع البشريّ وهي الحكمة العامّة المراعية للشّرع في جميع مقاصده الضّروريّة الخمسة من حفظ الدّين والنّفس والعقل والنّسل والمال»[4].

## المطلب الثالث: الظلم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[5]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَكَمَا أَهْلَكْنَا أُولَئِكَ الْقُرُونَ الظَّالِمَةَ الْمُكَذِّبَةَ لِرُسُلِنَا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِنَظَائِرِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ، إن أخذه أليم شديد»[6].

«وقوله: وَكَذلِكَ: الإشارةُ إلى ما ذكر من الأخذات في الأمَم، وهذه اية وعيدٍ يعمُّ قرى المُؤمنين والكافرينَ، فإنَّ «ظالمة»: أعمُّ من «كافرة»، وقد يمهل اللَّه تعالَى بعْضَ الكَفَرَة، وأما الظَّلَمَةُ، فمعاجَلُون في الغَالِب، وقد يُمْلي لَبَعْضِهِمْ»[7].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُملي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفلته»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»[8].

(١) التفسير الوسيط، للزحيلي، ٢/ ١٨٤٧.

(٢) ينظر: المقدمة ١/ ٤٦٨.

(٣) المصدر نفسه ، ١/ ٤٦٧.

(٤) المصدر نفسه ، ١/ ٣٥٦.

(٥) سورة هود، اية ١٠٢.

(٦) تفسير ابن كثير، ٤/ ٣٠٠.

(٧) ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥ ه)، دار احياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ، ٣/ ٣٠١.

(٨) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله (واذا اخذ القرى وهي ظالمة)، رقم (٤٦٨٦)، ٦/ ٤٧، صحيح مسلم، كتاب البر وصلة والادب ، باب تحريم الظلم، رقم

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»[1].

«ومعنى هذا أن الظالم مظلوم من جهته، فكما ينبغي أن ينصر المظلوم، ويدفع الظلم عنه، كذلك ينبغي أن ينصر إذا كان نفس الظالم ليدفع ظلمه عن نفسه وإنما أمر كلَّ واحد بنصرة أخيه المسلم إذا رآه يظلم وقدر على نصره، وكذلك إذا كان ظالمًا يرده بأي وجه قدر عليه»[2].

يقول ابن خلدون: «فلمّا كان الظّلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النّوع لما أدّى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الخطر فيه موجودة، فكان تحريمه مهمّا، وأدلّته من القرآن والسّنّة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضّبط والحصر. ولو كان كلّ واحد قادرا على الظّلم لوضع بإزائه من العقوبات الزّاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنّوع الّتي يقدر كلّ أحد على اقترافها من الزّنا والقتل والسّكر إلّا أنّ الظّلم لا يقدر عليه إلّا من يقدر عليه لأنّه إنّما يقع من أهل القدرة والسّلطان فبولغ في ذمّه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه»[3].

فيوضح لنا ابن خلدون ان الادلة على تحريم الظلم في الكتاب والسنة كثيرة وان من يقوم بالظلم في الغالب هم من يملكون السلطة، وبطبيعة الحال ان انهيار الدول يأتي من ظلم السلطة للأفراد بأنواع الظلم، وذلك لقدرة السلطة على الظلم.

مما يودي ببساطة كما يقول ابن خلدون الى انهيار الدولة: «أنّ الظّلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النّوع»[4].

وهذا يتعارض حتماً مع ثوابت الشريعة الاسلامية، واحكام السياسة الشرعية، لذلك يقول: «واعلم أنّ هذه هي الحكمة المقصودة للشّارع في تحريم الظّلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النّوع البشريّ وهي الحكمة العامّة المراعية للشّرع في جميع مقاصده الضّروريّة الخمسة من حفظ الدّين والنّفس والعقل والنّسل والمال. فلمّا كان الظّلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النّوع لما أدّى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الخطر فيه موجودة، فكان تحريمه مهمّا»[5].

ويقول ابن خلدون: «وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النّظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السّلطنة ونصفة القضاء وتحتاج إلى علوّ يد وعظيم رهبة تقمع الظّالم من الخصمين وتزجر

(٢٥٨٣)، ٤/ ١٩٩٧.

(١) صحيح البخاري، كتاب الاكراه ، باب اذا استكرهت المرأة، رقم (٦٩٥٢)، ٩/ ٢٢.

(٢) الكنز الاكبر من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالرحمن بن ابي بكر بن داوود الصالحي الحنبلي (ت: ٨٦٥هـ)، تحقيق د. مصطفى عثمان، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م، ص ٨٠.

(٣) ينظر: المقدمة ١/ ٣٥٦.

(٤) المصدر نفسه ، ١/ ٥١.

(٥) المصدر نفسه ، ١/ ٣٥٦.

المتعدّي وكأنّه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ويكون نظره في البيّنات والتّقرير واعتماد الأمارات»[1].

بل انه لأهمية هذا الموضوع افرد بولاية خاصة، في اوقات مبكرة من تاريخ الدولة الاسلامية، تحت اسم ولاية المظالم او ديوان المظالم، حدد لها ما تشمله وتنظر فيه من امور المظالم[2].

ويبين لنا ابن خلدون خطورة الظلم فيقول: «أنّ الظّلم مخرّب للعمران وأنّ عائدة الخراب في العمران على الدّولة بالفساد والانتقاض. ولا تنظر في ذلك إلى أنّ الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدّول الّتي بها ولم يقع فيها خراب واعلم أنّ ذلك إنّما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلمّا كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا وأحواله متّسعة بها لا ينحصر كان وقوع النّقص فيه بالاعتداء والظّلم يسيرا لأنّ النّقص إنّما يقع بالتّدريج»[3].

فالظلم يسقط الدولة بالتدريج كما يقول ابن خلدون لذلك يجب ان لا تستهين به الدول ولو كان ظلم بسيط .

ويبين لنا ابن خلدون تنوع الظلم الذي يؤدي الى انهيار الدولة فيقول: «ولا تحسبنّ الظّلم إنّما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظّلم أعمّ من ذلك وكلّ من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حقّ أو فرض عليه حقّا لم يفرضه الشّرع فقد ظلمه فجباة الأموال بغير حقّها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق النّاس ظلمة وغصّاب الأملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كلّه عائد على الدّولة بخراب العمران الّذي هو مادّتها لإذهابه الآمال من أهله»[4].

«ومن أشدّ الظّلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرّعايا بغير حقّ فإذا كلّفوا العمل في غير شأنهم واتّخذوا سخريّا في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متموّلهم فدخل عليهم الضّرر وذهب لهم حظّ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وإن تكرّر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السّعي فيها جملة فأدّى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التّوفيق»[5].

فالظلم سبب اساس في انهيار الدول، فظلا» عن انه مخالفة كبيرة لشرع الله واحكام الاسلام، ويتعارض مع اهداف السياسة الشرعية، في رعاية مصالح الناس، التي ذكرت في التمهيد، «والحضارة العظيمة لا يقضى عليها من الخارج إلا بعد أن تقضي هي على نفسها من الداخل»[6]، بالظلم وغيره.

(١) المصدر نفسه ، ١/ ٢٧٦.

(٢) ينظر: الاحكام السلطانية للماوردي، ص١٣٠، الاحكام السلطانية، ابو يعلى الفراء، ص٧٣.

(٣) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٥٦.

(٤) المصدر نفسه ، ١/ ٣٥٦.

(٥) المصدر نفسه ، ١/ ٣٥٧

(٦) قصة الحضارة، وليام ديورنت، ١١/ ٤٠٤

## المطلب الرابع: تقليد غير المسلمين

قَالَ تَعَالَىٰ: « وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾»(١).

«وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل، والمراد بهم المشركون، وفسر الميل بميل القلب إليهم بالمحبة، وقد يفسر بما هو أعم من ذلك كما يفسر الَّذِينَ ظَلَمُوا بمن وجد منه ما يسمى ظلما مطلقا، قيل: ولإرادة ذلك لم يقل إلى الظالمين ويشمل النهي حينئذ مداهنتهم وترك التغيير عليهم مع القدرة والتزيي بزيهم وتعظيم ذكرهم ومجالستهم من غير داع شرعي، وكذا القيام لهم ونحو ذلك، ومدار النهي على الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين، وقيل: إن ذلك للمبالغة في النهي»(٢).

قال النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ « فَمَنْ »»(٣).

«وَدُخُولُ الْجُحْرِ تَمْثِيلٌ لِلاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا نَهَى الشَّرْعُ عَنْهُ وَذَمَّهُ، وأَعْلَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَتَّبِعُ الْمُحْدَثَاتِ مِنَ الْأُمُورِ وَالْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ كَمَا وَقَعَ لِلْأُمَمِ قَبْلَهُمْ»(٤).

يقول ابن خلدون: «أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»(٥). وهذا الولع مشاهد، ومتابع ولا يحتاج الى دليل، مشاهد عند الرجال والنساء عند الشباب والشابات في المأكل والملبس والعادات الاجتماعية المنسوخة من الغرب، بل وحتى التعليم المنسوخ طبق الاصل من المناهج الغربية، مما اوجد مجتمعات ودول لم تصل ولن تصل الى مستوى التقدم في الغرب ولم تحافظ على دينها وعادتها وتقاليدها، لان التقليد ببساطة يوجد فجوة علمية وفكرية من الصعب ان تملا، ما دام المُقلِد يسير على خطى المُقلَد فكيف يسبقه.

«والانبهار بتقدم الغرب وقدراته دون التفرقة بين السقيم والسليم يجعل المرء في فصام تربوي بين إقرار وعدم تطبيق، واقتباس، فنقر للمنهج الإسلامي بالقدرة والاستطاعة على النهوض بالأمة كما نهض بأسلاف المسلمين عندما نهضوا به في قرونه الأولى مع عدم تطبيقه في مجالات الحياة، إضافة

(١) سورة هود، اية ١١٣.

(٢) ينظر: تفسير روح المعاني، شهاب الدين محمود بن عبدالله الالوسي (ت: ١٢٧٠ه ـ) تحقيق: علي عبدالباري، دار الكتب العلمية، ، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ ٦/ ٣٤٧.

(٣) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب لتتبعن سنن من كان قبلكم رقم (٧٣٢٠) ٦/ ٢٦٦٨ صحيح مسلم كتاب العلم باب إتباع سنن اليهود والنصارى رقم(٦٩٥٢) ٨/ ٥٧.

(٤) ينظر: فتح الباري، احمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩، ١٣/ ٣٠١.

(٥) ينظر: المقدمة، ١/ ١٨٤.

إلى الأخذ عن الغرب دون دراسة واعية مصححة على معايير الإسلام، مما يجعل الاستفادة من تقنيات الغرب يكترثها شيء من التأثر في الجوانب الأخرى، الأمر الذي يؤكد أهمية إيلاء هذا الجانب عناية من المؤسسات التربوية على مستوى الأمة والأفراد، بما يحصر الاستفادة في الجوانب التقنية دون امتداد تبعاتها على الجوانب الفكرية والعقدية والأخلاقية للأمة»[1].

وبين لنا ابن خلدون سبب هذا التقليد فيقول: «والسبب في ذلك ان النفس ابداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إمّا لنظره بالكمال بما وقر، عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ إنّما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتّصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به وذلك هو الاقتداء»[2].

فاعتقاد الكمال في الغالب هو الاساس في هذا التقليد فمن فتن بالحضارة الغربية يراها كلها فضائل، ولا يرى ما انغمست فيه هذه الحضارة من الرذائل.

ويقول ابن خلدون: «والله أعلم من ان غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنّما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب»[3].

اي ان الاساس في تقليد المغلوب ليس قوة باس الغالب، بقدر ما هو خضوع وخنوع المغلوب، والانهزام الفكري قبل الانهزام العسكري امام العدو.

ويوضح ذلك ابن خلدون بصريح العبارة عندما يتكلم عن حال الاندلس في وقته.

فيقول: «حتى انه اذا كانت امة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التّشبّه والاقتداء حظّ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع النصارى، فانك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ن، حتى في رسم التّماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتّى لقد يستشعر من ذلك النّاظر بعين الحكمة أنّه من علامات الاستيلاء والأمر للّه»[4].

ولاستيلاء الفعلي على كامل الاندلس حصل بعد مدة قصير نسبياً من كلام ابن خلدون[5].

ويقول ابن خلدون: «المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما وما ذلك إلّا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر إلى كلّ قطر من الأقطار كيف يغلب على اهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنّهم الغالبون لهم، وتأمّل في هذا سرّ قولهم العامّة على دين الملك»[6].

(١) ينظر: مصطلح فلسفة التربية في ضوء المنهج الإسلامي (دراسة نقدية) خالد بن حامد الحازمي، جامعة المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣٠٣.

(٢) ينظر: المقدمة، ١/ ١٨٥.

(٣) المصدر نفسه ، ١/ ١٨٥.

(٤) ينظر: المقدمة، ١/ ١٨٤.

(٥) ينظر: دولة الاسلام في الاندلس، محمد عبد الله عنان، (ت: ١٤٠٦هـ) طبع مكتبة الخانجي، القاهرة، ٥/ ١٩٦.

(٦) ينظر: المقدمة، ١/ ١٨٤.

وتشبه المجتمع بشكل واسع بالغرب في الملبس، للرجال والنساء، لا سيما للنساء جر على الامة الكثير من المشاكل، من مخالفة حديث الرسول الذي ذكرناه في مقدمة المطلب، فضلا «عن مخالفة النصوص الشرعية التي توجب الحجاب على المرأة المسلمة، وستر العورة على الرجل كما هو مفصل في كتب الفقه، فضلا» عن مخالفة احكام السياسة الشرعية، التي تلزم الحاكم بحفظ دين المجتمع، من خلال حفظ الاحكام الشرعية.

## المطلب الخامس: الترف

**قَالَ تَعَالَىٰ:** « وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا »[1]

«إذا دنا وقت إهلاك قوم بعذاب الاستئصال، أمر الله المترفين (أي المتنعمين) بالطاعة والخير أمرا فعليا، فإذا عصوا ذلك الأمر وفسقوا، وخرجوا عن حدود الطاعة وتمردوا، وجب عليهم العذاب جزاء وفاقا لعصيانهم فدمرهم الله تدميرا، وأبادهم إبادة تامة. وخص الله المترفين لأنهم الواجهة، وأنهم أولى بالشكر من غيرهم ولأن فسقهم هو المؤثر في فساد القرية، وسواهم تبع لهم»[2].

«من أسباب الانهيار التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: انتشار الترف، ولهذا فإن أول من يرد دعوة الأنبياء هم المترفون كما ورد في كثير من الآيات القرآنية، فالترفُ وحبُّ الدنيا يُقسِّي القلب، فلا يطيق صاحبه أن يسمع شيئاً عن الآخرة»[3].

قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مخاطبا» الانصار: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[4].

«وَالتَّنَافُسُ مِنَ الْمُنَافَسَةِ وَهِيَ الرَّغْبَةُ فِي الشَّيْءِ وَمَحَبَّةُ الِانْفِرَادِ بِهِ وَالْمُغَالَبَةُ عَلَيْهِ وَنَفُسَ الشَّيْءُ بِالضَّمِّ نَفَاسَةً صَارَ مَرْغُوبًا فِيهِ وَنَفِسْتُ بِهِ بِالْكَسْرِ بَخِلْتُ وَنَفِسْتُ عَلَيْهِ لَمْ أَرَهُ أَهْلًا لِذَلِكَ قَوْلُهُ فَتُهْلِكَكُمْ أَيْ لِأَنَّ الْمَالَ مَرْغُوبٌ فِيهِ فَتَرْتَاحُ النَّفْسُ لِطَلَبِهِ فَتُمْنَعُ مِنْهُ فَتَقَعُ الْعَدَاوَةُ الْمُقْتَضِيَةُ للمقاتلة المفضية إِلَى الْهَلَاكِ»[5].

وقد استفاضت الروايات في بيان قلة الطعام في بيوت رسول الله ﷺ فما كان أهله يشبعون من خبز الشعير يومين متتاليين، وكان جل طعامهم التمر، وحتى التمر ما شبعوا منه حتى فتحت خيبر، وأما اللحم وخبز البر والسمن والقثاء فقلما كانوا ينالونه، وقد يمضي عليهم الشهر والشهران ما يوقدون ناراً تحت قدر لا لخبز ولا لطعام إلاّ نادراً، مكتفين بالتمر والماء[6].

---

(١) سورة الاسراء، اية ١٦.

(٢) التفسير الوسيط، د وهبة بن مصطفى الزحيلي الناشر: دار الفكر – دمشق الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ ٢/ ١٣٣٤.

(٣) ينظر: دروس للشيخ سفر الحوالي، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية
http: //www. islamweb. net

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ٨/ ٩٠.

(٥) ينظر: فتح الباري، ١١/ ٢٤٦.

(٦) ينظر: السِّيرةُ النَّبويَّةُ الصَّحيحَةُ مُحاوَلَةٌ لتَطبيقِ قَواعِدِ المُحَدِّثينَ

لذلك يقول ابن خلدون: «واعلم أنّ أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتّى في حال الدّين والعبادة فنجد المتقشّفين من أهل البادية أو الحاضرة ممّن يأخذ نفسه بالجوع والتّجافي عن الملاذّ أحسن دينا وإقبالا على العبادة من أهل التّرف والخصب بل نجد أهل الدّين قليلين في المدن والأمصار لما يعمّها من القساوة والغفلة المتّصلة بالإكثار من اللّحمان والأدم ولباب البرّ ويختصّ وجود العبّاد والزّهّاد لذلك بالمتقشّفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيّباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر»[1].

وهذا تحليل دقيق من ابن خلدون عن اثر الترف على الدين والعبادة والاخلاق وفي التفريق بين سكان المدن وسكان البوادي، وبيان سبب اساس للوقوع في الترف من قبل سكان المدن وهو توفر اسباب الترف، مما يسهل الوقوع فيه والبعد عن الزهد.

«وحقيقة الزهد في الدنيا إنما هو في الترفع عن زخارفها، وعصمة النفس من التوسع فيها مع القدرة على ذلك، لا عن تعنت وتحريم لما أحل الله من الطيبات، ولكن عن تنزه أن يكون الإنسان عبد أهوائه وأسير شهواته وملذاته، وهذا هو زهد الأنبياء والمرسلين، والصدّيقين والصالحين»[2].

لذلك يجب ان نفرق بين الترف المنهي عنه والتمتع بما احل الله للناس، فالتَرَفُ في اللغة: «التَّنَعُّمُ، والتُّرْفَةُ النَّعْمةُ، والتَّتْريفُ حُسْنُ الغِذاء. وصبيٌّ مُتْرَفٌ إِذَا كَانَ مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلًا والمُتْرَفُ: الَّذِي قَدْ أَبْطَرَتْه النعمةُ وسَعة العيْشِ. وأَتْرَفَتْه النَّعْمةُ أَي أَطْغَتْه»[3].

يقول ابن خلدون: «فالتّرف مفسد للخلق بما يحصل في النّفس من ألوان الشّرّ والسّفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخير الّتي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتّصفون بما يناقضها من خلال الشّرّ فيكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدّولة مبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها»[4].

«ومتى غرقت أمة من الأمم في الترف، وأبطرتها الرفاهية التي تجر ذيولها مستكبرة، دبت فيها عوامل الانهيار الخلقي، وبدأت تنسى الله والدار الآخرة، وتتعلق بزخرف الحياة الدنيا كأنها فيها خالدة، وتسعى وراء غرائب اللذات، وتتجدد لديها مطالب مستنكرة من متع الحياة، وأخذ مترفوها يتنافسون في ابتكار

(١) ينظر: المقدمة، ١/ ١١١.

فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، د. أكرم ضياء العمري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، ٢/ ٦٥٣.

(٢) ينظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، دار القلم - دمشق ١٤٢٧ هـ، ٢/ ٦٥١.

(٣) ينظر: لسان العرب، باب التاء المثناة، ٩/ ١٧.

(٤) ينظر: المقدمة، ١/ ٢١٢.

أنواع مستحدثة مما يشتهون أو به يتلهون»[1].

فيجعل ابن خلدون الترف علامة على ادبار وانقراض الدولة، ثم يوضح ذلك بقوله: «أنّ غاية العمران هي الحضارة والتّرف وأنّه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطّبيعيّة للحيوانات. بل نقول إنّ الأخلاق الحاصلة من الحضارة والتّرف هي عين الفساد لأنّ الإنسان إنّما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضارّه واستقامة خلقه للسّعي في ذلك. والحضريّ لا يقدر على مباشرته حاجاته إمّا عجزا لما حصل له من الدّعة أو ترفّعا لما حصل من المربى في النّعيم والتّرف وكلا الأمرين ذميم»[2].

وسبب ذلك كما يقول: «أنّ طبيعة الملك تقتضي الدّعة، وإذا اتّخذوا الدّعة والرّاحة مألفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلّة شأن العوائد كلّها وإيلافها فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد التّرف والدّعة وينقلب خلق التّوحّش وينسون عوائد البداوة الّتي كان بها الملك من شدّة البأس وتعوّد الافتراس وركوب البيداء فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدّولة بما تلبّس من ثياب الهرم»[3].

وما يقوله ابن خلدون حدث امامه في الاندلس، والمسلمون لا يجهلون أن سقوط الأندلس يرجع إلى تمزق الصف العربي والإسلامي وكثرة دويلات المسلمين، وتسلل العناصر المتآمرة إلى صفوف تلك الدويلات، والركون إلى الترف والتعرض للأفكار المنحرفة[4].

يقول ابن خلدون عن الترف: «ويكثر الإنفاق بسببه فتعظم نفقات السّلطان وأهل الدّولة على العموم ثمّ يعظم التّرف فيكثر الإسراف في النّفقات وينتشر ذلك في الرّعيّة لأنّ النّاس على دين ملوكها وعوائدها ويحتاج السّلطان إلى ضرب المكوس لما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده ثمّ تزيد عوائد التّرف فلا تفي بها المكوس وتكون الدّولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرّعايا فتمتدّ أيديهم إلى جمع المال من أموال الرّعايا»[5]. وسنتكلم عن هذا الجانب في المطلب التالي.

ثم يبين خلدون ان الترف من عوائق الملك واستمرار الدولة فيقول: «أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم، ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه إنّما همّتهم النّعيم والكسب وخصب العيش والسّكون في ظلّ الدّولة إلى الدّعة والرّاحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني

(١) ينظر: اجنحة المكر الثلاث، عبد الرحمن بن حسن الدمشقي (ت: ١٤٢٥ه ـ) طبع دار القلم - دمشق، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ص٤٣٦.
(٢) ينظر: المقدمة ١/ ٤٦٨
(٣) المصدر نفسه ، ١/ ٢١٢.
(٤) ينظر: دور الإعلام في التضامن الإسلامي، إبراهيم إمام، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١٦، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٦٨.
(٥) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٦٦.

الملابس والاستكثار من ذلك والتّأنّق فيه بمقدار ما حصل من الرّياش والتّرف، وتضعف العصبيّة والبسالة، وإذا انقرضت العصبيّة قصّر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الأمم سواهم فقد تبيّن أنّ التّرف من عوائق الملك وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ من يَشاءُ»[1].

«واذا دَبَّ الترف وسرى في عروق الحاكمين وامتدَّ من الحاكمين إلى مَنْ يلهم من الطبقات ومع الترف يكون الفسق ويكون الفجور، وارتخت أعصاب المترفين، وترهَّلت أجسادهم ونعمت أطرافهم، فلم تعد صالحةً للجهاد، والدفاع عن الدولة»[2].

ويذكر ابن خلدون علامة على انتشار الترف وبداية انهيار الدولة فيقول: «ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتّى أنّ كثيرا من العامّة يتحامى غرسه بالدّور تطيرا به. وليس المراد ذلك ولا أنّه خاصّيّة في النّارنج وإنّما معناه أنّ البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة. ثمّ إنّ النّارنج، وأمثال ذلك ممّا لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة إذ لا يقصد بها في البساتين إلّا أشكالها فقط ولا تغرس إلّا بعد التّفنّن في مذاهب التّرف. وهذا هو الطّور الّذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه»[3].

وطبعا» هذه العلامة تختلف من دولة الى اخرى ومن عصر الى اخر، لكن يبقى المقصود منها ان الترف يودي الى انهيار الدولة عاجلا» او اجلا».

## المطلب السادس: الاسباب الاقتصادية

**قَالَ تَعَالَىٰ: «وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾»**[4].

«المال قوام الحياة المعيشية، وأساس تقدم الدول والجماعات، فبه تنهض الأمة، وهو المعوّل عليه في الحرب والسلم وبناء الحضارات. لذا صانه الإسلام، وجعل تحرّكه وانتقاله بين الناس مرهونا بالحق والعدل، فلا غشّ ولا غبن ولا ظلم ولا استغلال ولا اغتصاب، ولا يجوز لأحد أن يأخذ مال أحد إلا بإذنه، ونهانا الله سبحانه في هذه الآية أن نأكل أموال بعضنا بالباطل وبدون وجه حق، ونهانا أن نلقي بالأموال إلى الحكام مستعينين في ذلك بالدفاع بالباطل، والآية تشمل أخذ مال الآخرين بغير حق بمختلف الوسائل»[5].

قال الرسولﷺ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ،

(١) المصدر نفسه ، ١/ ١٧٥.

(٢) ينظر: حاضر العالم الإسلامي، على جريشه ومحمود محمد سالم الناشر: مطاب الدجوي –القاهرة– عابدين، ص ٨٦.

(٣) ينظر: المقدمة، ١/ ٤٦٧.

(٤) سورة البقرة، اية ١٨٨.

(٥) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٩٢.

فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»[1].

قال الرسولﷺ عن الغامدية[2]: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ[3] لَغُفِرَ لَهُ»[4].

«كره الإسلام الشره والطمع والتكالب على جمع الأموال، وحرّم الظلم والعدوان وأكل أموال الناس بالباطل تحريماً جازماً»[5].

يقول ابن خلدون: «اعلم أنّ العدوان على النّاس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أنّ غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السّعي في الاكتساب فإذا قعد النّاس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتفضت الأحوال، فخفّ ساكن القطر وخلت دياره وخرجت أمصاره واختلّ باختلاله حال الدّولة والسّلطان»[6].

وهذا الامر كما يقول يودي الى اختلال حال الدولة، فالظلم وأكل اموال الناس بالباطل يودي حتماً وبشكل تدريجي الى انهيار اقتصادي ثم انهيار الدولة بشكل عام.

ويبين لنا ابن خلدون سبب قيام الدولة بظلم الرعية واخذ اموالهم فيقول: «اعلم ان الدولة تكون في أوّلها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم التّرف وعوائده فيكون خرجها وإنفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء بازيد منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بالحضارة في الترف ويكثر خراج السّلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصّته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدّولة إلى الزّيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسّلطان من النّفقة فيزيد في مقدار الوظائف»[7].

فاحتياج الطبقة الحاكمة الى الاموال لتغطي نفقاتها المتزايدة على الترف وبناء القصور وغيرها من الامور تدفعهم الى زيادة الضرائب والمكوس، اذ يعد هذا الحل الاسهل على اي حاكم متسلط، فمن يعارض تسرع اليه السيوف، ومن يسكت يسكت على ظلم لا يتغير الا بانتهاء هذه الدولة.

ويكون ذلك بالتدريج كما يقول ابن خلدون:

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب«رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، رقم (٦٧)، ١/ ٢٤.

(٢) وهي التي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، طهرني. فقال لها: ارجعي ثم أتته من الغد فاعترفت بالزنا. . . . . وأمر بها فرجمت. ينظر: اسد الغابة، أبو الحسن علي بن أبي الكرم ، بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م، ٦/ ٤٤٠.

(٣) الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار، وقد غلب استعمال المكس فيما يأخذه أعوان السلطان ظلما عند البيع والشراء. ينظر: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، الدكتور سعدي أبو حبيب، دار الفكر. دمشق – سورية، ط٢، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م، ص٣٣٨

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحدود ، باب مَنِ اعْتَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالزِّنَى، رقم (١٦٩٥)، ٣/ ١٣٢٣.

(٥) ينظر: اجنحة المكر الثلاث، ١/ ٥١٤.

(٦) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٤٥.

(٧) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٤٦.

«ويزيدون في كلّ وظيفة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على المبايعات، ثمّ تتدرّج الزّيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرّج عوائد الدّولة في التّرف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه حتّى تثقل المغارم على الرّعايا وتهضمهم وتصير عادة مفروضة لأنّ تلك الزّيادة تدرّجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التّعيين ولا من هو واضعها»[١].

فالترف وزيادة نفقات الدولة بمرور السنين تدفع الدولة الى زيادة المكوس ولكن هل ينفع هذا الاجراء في توفير ما تحتاجه الدولة من نفقات.

يجيب عن ذلك ابن خلدون فيقول: «فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار فتنقص جملة الجباية، وربّما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النّقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص، فلا تزال الجملة في نقص ومقدار والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدّولة»[٢].

ومعنى كلام ابن خلدون انه كلما زادت المكوس قل ما تجنيه الدولة من ايرادات وهو عكس ما كانت تأمل من زيادة المكوس.

لذك يضع ابن خلدون قاعدة في علم الاقتصاد فيقول: «أنّ أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن فبذلك، تنبسط النّفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه»[٣].

اي ان تقليل الضرائب يؤدي الى زيادة النمو الاقتصادي لأنه يشجع الناس على العمل والاستثمار، لذلك تؤكد الدراسات الاقتصادية العالمية هذا الكلام، فيمكن للدولة ان تساعد بشكل افضل في تخفيض الضرائب على الافراد وعلى رجال الاعمال، كل ذلك يوجد ارتفاعا» في النمو الاقتصادي، لدرجة انه في النهاية ترتفع الحصيلة الاجمالية للضرائب، حتى ولو كانت معدلات تلك الضرائب منخفضة [٤].

إذ تؤكد أبسط القواعد الاقتصادية أن العلاقة عكسية بين منحنى الضرائب والنمو، وكلما ارتفعت الضرائب، أصبحت فرص النمو الاقتصادي أقل بحسب الخبراء، لأن ذلك يعني تراجع معدلات الاستهلاك وتراجع معدلات الانتاج والمبيعات بالمحصلة. ويشير الخبراء إلى أن استخدام ورقة تخفيض الضرائب حاليا قد يكون بمثابة العصا السحرية، التي ستؤدي إلى زيادة الايرادات العامة لا نقصانها وبالتالي تقليص الضغط على الموازنة العامة للدولة[٥].

ثم يتكلم ابن خلدون عن عمل الحكام في التجارة واثره في انهيار النظام الاقتصادي فيقول: «أن

(١) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٤٥.

(٢) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٤٥.

(٣) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٤٥.

(٤) ينظر: الانفجار الاقتصادي الكبير في التسعينيات، تاليف رافي باترا، ترجمة عدنان شومان، ط١، طبع الصالحاني للطباعة، دمشق، ص ٦٧.

(٥) ينظر: الغد الاردني ، مقالة. تخفيض الضرائب العصا السحرية في مواجهة الانكماش الاقتصادي، عبدالرحمن الخوالدة، ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٠.

التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية، ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وإدخال الضّرر على الرّعايا من وجوه متعدّدة، ويدخل به على الرّعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السّعي في ذلك جملة ويؤدّي إلى فساد الجباية فإنّ معظم الجباية إنّما هي من الفلّاحين والتّجّار، فإذا انقبض الفلّاحون عن الفلاحة وقعد التّجّار عن التّجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النّقص»[1].

«وَلِهَذَا شَاطَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مِنْ عُمَّالِهِ مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ وَدِينٌ، لَا يُتَّهَمُ بِخِيَانَةٍ، وَإِنَّمَا شَاطَرَهُمْ لَمَّا كَانُوا خُصُّوا بِهِ لِأَجْلِ الْوِلَايَةِ مِنْ مُحَابَاةٍ وَغَيْرِهَا، وَكَانَ الْأَمْرُ يَقْتَضِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ إمَامَ عَدْلٍ، يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ»[2].

ومن عوامل الانهيار الاقتصادي التي يذكرها ابن خلدون امتناع الحاكم عن انفاق الاموال فيقول: «أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية والسّبب في ذلك أنّ الدّولة والسّلطان هي السّوق الأعظم للعالم ومنه مادّة العمران فإذا احتجز السّلطان الأموال فلم يصرفها في مصارفها، يقع الكساد حينئذ في الأسواق وتضعف الأرباح في المتاجر فيقلّ الخراج لذلك لأنّ الخراج والجباية إنّما تكون من الاعتمار، ووبال ذلك عائد على الدّولة بالنّقص لقلّة أموال السّلطان حينئذ بقلّة الخراج، فالمال إنّما هو متردّد بين الرّعيّة والسّلطان منهم إليه ومنه إليهم فإذا حبسه السّلطان عنده فقدته الرّعيّة»[3].

وهذا مخالف لأحكام الاسلام، وضوابط السياسة الشرعية في حفظ المال ، فمن القواعد المقررة في الاسلام أن كل ما يرد من موارد الدولة المالية فهو حق للأمة لا يصرف إلا في مصالحها العامة. وعلى هذا الأساس رتبت المصارف التي ينفق فيها إيراد الدولة[4].

«وَأَمَّا الْمَالُ الْمُرْصَدُ لِلْمَصَالِحِ، فَلَا نَتَصَوَّرُ انْقِطَاعَ مَصَارِفِهِ. وَيَبْدَأُ فِيهِ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ، فَأَهَمُّ الْمَصَالِحِ تَمْهِيدُ كِفَايَةِ الْمُرْتَزِقَةِ، وَإِنْ لَمْ تَفِ الزَّكَوَاتُ بِحَاجَاتِ الْمَحَاوِيجِ سَدَّ الْإِمَامُ حَاجَتَهُمْ بِمَالِ الْمَصَالِحِ»[5].

وهناك نصوص كثيرة في مقدمة ابن خلدون تتكلم عن الاسباب التي تودي الى الانهيار الاقتصادي للدول منها استخدام الناس في اعمال السخرة للدولة دون مقابل، وكذلك اخذ اموال الناس جبرا» دون مقابل واجبارهم على شراء السلع من الدولة بأكثر من

(١) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٤٨.

(٢) ينظر: السياسة الشرعية، أحمد بن عبد الحليم بن محمد ابن تيمية الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ) ط١، ١٤١٨هـ، ص ٣٨.

(٣) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٥٣.

(٤) ينظر: السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية عبد الوهاب خلاف (المتوفى: ١٣٧٥هـ) دار القلم، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م، ص١٣٤.

(٥) ينظر: غياث الأمم في التياث الظلم، امام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، (ت: ٤٧٨هـ) تحقيق: عبد العظيم الديب ، مكتبة إمام الحرمين، ط٢، ١٤٠١هـ، ص٢٤٨.

قيمتها، لم نتكلم عنها خشية الاطالة[1].

## المطلب السابع: الحلول والمعالجات

قَالَ تَعَالَىٰ: «قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾»[2].

«فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى، عليه السلام، بالدخول إِلَيْهَا، وَبِقِتَالِ أَعْدَائِهِمْ، وبَشَّرهم بِالنُّصْرَةِ وَالظَّفْرِ عَلَيْهِمْ، فَنَكَلُوا وعَصَوْا وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ فِي التِّيهِ وَالتَّمَادِي فِي سَيْرِهِمْ حَائِرِينَ، لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ فِيهِ إِلَى مَقْصِدٍ، مُدّة أَرْبَعِينَ سَنَةً، عُقُوبَةٌ لَهُمْ عَلَى تَفْرِيطِهِمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ»[3].

ولقد اعتمد ابن خلدون على قصة بني اسرائيل التي وردت في القرآن الكريم بتفاصيلها، في تحديد الفترة الازمة لإصلاح الدولة والمجتمع فيقول: «وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذّلّ للقبط أحقابا حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع انهم لم يؤمنوا حقّ الإيمان بما أخبرهم به موسى من أنّ الشّام لهم وأنّ العمالقة الّذين كانوا بأريحا فريستهم بحكم من الله قدّره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على ما في أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلّة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيّهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالتّيه وهو أنّهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشّام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها العمران ولا نزلوا مصرا ولا خالطوا بشرا كما قصّه القرآن»[4].

فيوضح ابن خلدون ان بقاء بني اسرائيل في العبودية عند الفراعنة زرع فيهم الذل والعجز، وعدم الثقة بالنفس، وهذه الصفات ممكن ان تدمر مستقبل اي امة، لذلك كان الحل رباني وشامل، لعلاج هذه الصفات.

فيقول: «أنّ حكمة ذلك التّيه مقصودة وهي فناء الجيل الّذين خرجوا من قبضة الذّلّ والقهر والقوّة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيّتهم حتّى نشأ في ذلك التّيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسأم بالمذلّة فنشأت بذلك عصبيّة أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتّغلّب ويظهر لك من ذلك أنّ الأربعين سنة أقلّ ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر سبحان الحكيم العليم»[5].

وهذا يوضح لنا ان الجيل الذي حارب وفتح فلسطين ليس الجيل الذي خرج من مصر، لان فترة الاربعين سنة كانت كافية لإهلاك هذا الجيل الا قليل منهم بشكل طبيعي، فمن كان بعمر سنة عند الخروج اصبح عمره فوق الاربعين ومن كان بعمر عشرين

(١) ينظر: المقدمة، ١/ ٣٥٧.
(٢) سورة المائدة، اية ٢٤، ٢٥، ٢٦.
(٣) تفسير ابن كثير، ٣/ ٧٥.
(٤) ينظر: المقدمة ١/ ١٧٧
(٥) ينظر: المقدمة ١/ ١٧٧

سنة اصبح عمره فوق الستين، فالتيه كان عقوبة واصلاح في نفس الوقت، والاربعون سنة هي اقل فترة ممكن فيها اصلاح المجتمع بشكل كامل.

وتبين لنا الآيات القرآنية كيف كان حال الذل العجز، الذي كان فيه بني اسرائيل بعد الخروج من مصر.

قَالَ تَعَالَىٰ: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾»[1].

«ذكر الله تعالى بعض قبائح اليهود، ومنها أنهم قالوا لموسى: لا يمكننا أن نستمرّ على طعام واحد، وهو المنّ والسّلوى، وطلبوا أطعمة أخرى من الخضار والبقول كالحنطة والعدس، والبصل والقثاء»[2].

«فَبَطَرُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَيْهِ، وَذَكَرُوا عَيْشَهُمْ، الَّذِي كَانُوا فِيهِ، وَكَانُوا قَوْمًا أَهْلَ أَعْدَاسٍ وَبَصَلٍ وَبَقْلٍ وَفُومٍ»[3].

وتوضح لنا هذه الآيات الفرق الشاسع بين ما كان يريده سيدنا موسى من بني اسرائيل من فتح البلاد وانشاء دولة، تحميهم وتعزهم وما كان يفكر فيه بني اسرائيل من طعام مصر، الذي كانوا يأكلونه وهم عبيد لفرعون، يسومهم الذل والمغارم، يذبح ابنائهم ويستحيي نسائهم، لذلك كان التيه هو العلاج المناسب، نسي فيه بني اسرائيل طعام مصر مع ذل فرعون.

وبعد اكتمال نزول الشريعة واكتمال مدة الاربعين سنة من التربية والتعليم الرباني، كما يقول ابن خلدون: «وموسى صلوات الله عليه بين ظهرانيهم يسأل الله لطفه بهم ومغفرته ويدفع عنهم مهالك سخطه، وأكمل الله الشريعة والأحكام والوصايا لموسى عليه السلام، وقبضه إليه لمائة وعشرين سنة من عمره»[4].

فكانت النتيجة مبهرة، بعد اربعين سنة، جيل جديد وامة جديدة لا تعرف الذل وتأنف من العبودية، ، فتح الله بها الارض المقدسة فلسطين على ايديهم[5].

وهذا الامر يؤكد ان السياسة الشرعية السليمة من قبل الحكام، والتربية والتعليم الصحيح هي بداية اي مشروع اصلاحي في اي امة، ولكي ينجح هذا التعليم يحتاج بيئة سليمة صحيحة صحية، بعيدة عن اي مؤثرات مفسدة.

لذلك يقول ابن خلدون عن مكانة العلماء ووجوب اهتمام الدولة بهم: «وتعظيم الشّريعة وإجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحدّدونه

(١) سورة البقرة، اية ٦١.
(٢) ينظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٣٠.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٢٨١.
(٤) ينظر: تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، (ت: ٨٠٨هـ) تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ٢/ ٩٧- ٩٩.
(٥) ينظر: تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٩٩.

لهم من فعل أو ترك وحسن الظّنّ بهم واعتقاد أهل الدّين والتّبرّك بهم ورغبة الدّعاء منهم والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم والانقياد إلى الحقّ مع الدّاعي إليه، علمنا أنّ هذه خلق السّياسة قد حصلت لديهم واستحقّوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنّه خير ساقه الله تعالى إليهم»[1].

ومع ان ابن خلدون يتكلم في هذا النص عن علماء الشريعة، لكن هذا لا يمنع ان يدخل في الاهتمام صاحب كل علم مفيد، ينفع الامة في كل المجالات من طب وهندسة وكيمياء وفيزياء وغيرها من العلوم النافعة.

ويقول ابن خلدون في موضع اخر: «واعلم أنّ من خلال الكمال، إكرام العلماء والصّالحين، وأمثاله ضروريّ في السّياسة الخاصّة، وإكرام الطّارئين من أهل الفضائل والخصوصيّات كمال في السّياسة العامّة فالصّالحون للدّين والعلماء للاجئي إليهم في إقامة مراسم الشّريعة، حتّى تعمّ المنفعة بما في أيديهم ولهذا كان أوّل ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذّن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصّنف من الخلق فإذا رأيته قد ذهب من أمّة من الأمم فاعلم أنّ الفضائل قد أخذت في الذّهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم «وَإِذا أَرادَ الله بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ، والله تعالى أعلم»[2].

يؤكد ابن خلدون في هذا النص على وجوب الاهتمام الدول بالعلماء واكرامهم وان هذا العمل من السياسة الشرعية التي يجب ان يسير عليها الحكام، وان العمل بعكس ذلك يؤدي الى انهيار الدولة وقرب زولها، فكيف لو عاش اليوم، ووجد الكثير من الدول المسلمة، لا تكرم غير الراقصات والفنانين، وتفسح لهم طريق الاعلام الرسمي، ويكاد لا يعرف احد علمائها، ودول اشهر من فيها مغنيها.

يقول ابن خلدون: «تبيّن أنّ حقيقة الحكم نيابة عن صاحب الشّرع في حفظ الدّين وسياسة الدّنيا، في الدّين فبمقتضى التّكاليف الشّرعيّة الّذي هو مأمور بتبليغها وحمل النّاس عليها وأمّا سياسة الدّنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشريّ وقد قدّمنا أنّ هذا العمران ضروريّ للبشر وأنّ رعاية مصالحه كذلك لئلّا يفسد إن أهملت وقدّمنا أنّ الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح»[3].

وهذا هو المقصد الاساس للسياسة الشرعية في الاسلام، مما يؤكد ان الاصلاح والمحافظة على مصالحة الامة، يبدأ من الحاكم، او السلطة الحاكمة بفرعيها التشريعي والتنفيذي ، بعد ان تدعم العلم والتعلم والعلماء، وتصدر التشريعات وتوفر التخصيصات، التي تحول الاصلاح الى مشروع امة تطمح للنهوض،

(١) ينظر: المقدمة ، ١/ ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه ، ١/ ١٨١.

(٣) ينظر: المقدمة ، ١/ ٢٧٢.

وتريد مغادرة حفرة التحلل والزوال والانهيار الحتمي بدون الاصلاح.

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وتوفيقه ومعونته لي استطعت أن أنجز هذا البحث، والذي توصلت فيه إلى بعض النتائج الطيبة، التي اسأل الله ﷻ أن ينفعني والمسلمين بها وأهم هذه النتائج ما يلي:

١. أن لكل أمة أجلاً محدداً، وابرز من تكلم عن ذلك ابن خلدون، معتمدا» في ما توصل اليه على القرآن الكريم والسنة المطهرة، بشكل اساس.

٢. نبذ الدين وانتشار الفواحش والمعاصي سبب اساس في انهيار الدول، وللأحكام الشرعية دور كبير في حفظ المجتمع من الانهيار الاخلاقي، لأنها انما جاءت لحفظ الضروريات، لا سيما حفظ الدين.

٣. الظّلم مؤذنا بانقطاع النّوع وتخريب العمران، وهو سبب مهم من اسباب انهيار الدول فظلا» عن انه مخالفة كبيرة لشرع الله واحكام الاسلام.

٤. الانهزام الفكري وتقليد الغالب اورث الامة الخنوع، وهو سبب من اسباب انهيار الدول.

٥. الترف علامة على ادبار وانقراض الدولة، وهو من عوائق الملك واستمرار الدولة، أول من يرد دعوة الأنبياء هم المترفون، لذلك كان سبب مهم من اسباب انهيار الدول.

٦. زيادة الضرائب والمكوس واكل اموال الناس بالباطل، وعمل الحكام بالتجارة، من اسباب انهيار الدول، فضلا» عن انه مخالفة صريحة للأحكام الشرعية، واسس السياسة الشرعية.

٧. لقد حدد ابن خلدون المدة اللازمة للإصلاح في اي دولة بأربعين سنة، واساس هذا الاصلاح هو التربية والتعليم، فضلاً عن توفير البيئة الازمة لنجاح الاصلاح، والاهتمام بالعلماء وتوقيرهم لانهم اساس الاصلاح والمعرفة وانه لا نهوض للأمم لا بهم.

## المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم


١. ابن خلدون اسلاميا»، عماد الدين خليل، طبع المكتب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣م

٢. ابن خلدون وآراؤه الاعتقادية، عبدالله عبدالرشيد عبدالله، رسالة دكتوراه، جامعة ام القرى، كلية الدعوة واصول الدين، مكة، ١٤٢٠ ه .

٣. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى١٤٢٥هـ) الناشر: دار القلم – دمشق، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

٤. الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار الحديث – القاهرة .

٥. الاحكام السلطانية، ابو يعلى الفراء،

٦. اسد الغابة، أبو الحسن علي بن أبي الكرم ، بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

٧. الاسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، د. مصطفى الشكعة، طبع الدار المصرية اللبنانية، ط ٣، بلا

٨. الأعلام خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)دار العلم للملايين ط١٥ ٢٠٠٢م

٩. الانفجار الاقتصادي الكبير في التسعينيات، تاليف رافي باترا، ترجمة عدنان شومان، ط١، طبع الصالحاني للطباعة، دمشق.

١٠. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

١١. تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية،

١٢. تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، (المتوفى: ٨٠٨هـ) المحقق: خليل شحادة دار الفكر، بيروت١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٣. تاريخ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) دار التراث - بيروت، ط٢، ١٣٨٧ه.

١٤. تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ط١ ١٤١٠ هـ،

١٥. التفسير الوسيط للزحيلي، المؤلف: د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر - دمشق الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ .

١٦. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ) المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ .

١٧. حاضر العالم الإسلامي، على جريشه ومحمود محمد سالم الناشر: مطاب الدجوي -القاهرة- عابدين.

١٨. الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم، يوسف العاصي إبراهيم الطويل)، مطبعة صوت القلم العربي، مصر، ط٢، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

١٩. دروس للشيخ سفر الحوالي، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية

http: //www. islamweb. net.

٢٠. دور الإعلام في التضامن الإسلامي، إبراهيم إمام، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١٦، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢١. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (المتوفى: ١٤٠٦هـ) الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ٥/ ١٩٦.

٢٢. ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (المتوفى: ٨٣٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.

٢٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، (لمكتبة المعارف).

٢٥. السياسة الشرعية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٦. السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية عبد الوهاب خلاف (المتوفى: ١٣٧٥هـ) دار القلم، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م،

٢٧. سير اعلام النبلاء

٢٨. السِّيرةُ النَّبويَّةُ الصَّحيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، د. أكرم ضياء العمري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

٢٩. السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، دار القلم - دمشق ١٤٢٧ هـ.

٣٠. صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ

٣١. صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٢. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: نايف بن أحمد الحمد الناشر: دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٨ هـ.

٣٣. الغد الاردني ، مقالة. تخفيض الضرائب العصا السحرية في مواجهة الانكماش الاقتصادي، عبدالرحمن الخوالدة، ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٠.

٣٤. غياث الأمم في التياث الظلم عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ) المحقق: عبد العظيم الديب ، مكتبة إمام الحرمين،

ط٢، ١٤٠١هـ.
٣٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
٣٦. القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، الدكتور سعدي أبو حبيب، دار الفكر. دمشق - سورية، ط٢، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م.
٣٧. قصة الحضارة، وليام ديورنت، الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٣٨. الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود الحنبلي الدمشقي الصالحي (المتوفى: ٨٥٦ هـ)، المحقق: د. مصطفى عثمان صميدة، أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين بالقاهرة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
٣٩. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة
٤٠. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم النيسابوري، (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١١ - ١٩٩٠
٤١. مصطلح فلسفة التربية في ضوء المنهج الإسلامي (دراسة نقدية) خالد بن حامد الحازمي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة: السنة السادسة والثلاثون، العدد الرابع والعشرون بعد المائة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
٤٢. مقدمة ابن خلدون، مطبوعة مع كتاب تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، بيروت١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٤٣. المُنَجَّد في اللغة (أقدم معجم شامل للمشترك اللفظي)، المؤلف: علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، أبو الحسن الملقب بـ «كراع النمل» (المتوفى: بعد ٣٠٩هـ)، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، دكتور ضاحي عبد الباقي الناشر: عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨.